Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نَهارى نهارُ النّاس، حتّى إذا دَجا لِـيَ الليـلُ هزَّتْنـى إليـكِ

فَقِرانُ الخيل والليل يظل متحقِّقاً فى المستوى الصوتىِّ ؛ ممكناً فى المستوى الدلالىِّ.

وتأتى البَيْداء لتضع المكان المفتوح إلى جوار الزمان المغلق، فهى تتحرر من النمط الصوتىِّ الماثل فى الثنائية السابقة، وتقدم عنصراً ثالثاً مركزياً فى أسطورية الإنسان العربىِّ، يُفسح للخيل ميدان حركتها، ويضع للمرأة – أو الليل – إطاره الجمالىَّ المحبب ؛ وشهيرة هى أبيات المتنبى فى حُسن البداوة غير المجلوب بالتَّطْرية والصناعة، وافتتانه بالفطرة والطبيعة. البيداء إذن تقدم الفضاء الغنائىَّ المثالىَّ الذى تمرح فيه الخيل وترعى الظِّباء الأوانس. البَيْداء هى التى تطويها الخيل وتسكنها الحِسان، ويغمرها الليل دون أن تقلقه المصابيح المرتعشة فى شوارع الحواضر. غير أن كلمة البَيْداء الممدودة المفتوحة لها وظيفة أخرى فى السياق الشعرىِّ، فهى الثالثة من العناصر المعدودة، ولابد أن تكون أطول منها فى المقاس الصوتىِّ، هكذا تقتضى تقنيةُ النسيج الشعرىِّ، وهى بذلك تتيح الفرصة للمنشد المبالغ أن يمد صوته ويضم العالم فى كفيه حتى يصل إلى أطرافه. غير أن ثمة نواةً دلالية أخرى للبَيْداء لاينبغى أن نغفلها، فهى مهد الفصاحة ومواطن اللغة البِكر ومقرّ الشاعرية، وشهيرة هى تقاليدُ أهل الحواضر فى دفع أولادهم ليرضعوا لغة البَيْداء فى صباهم حتى تشب على النقاء المثالىِّ، والجمال الفطرىِّ البسيط، وتبرأ من تراكمات الحضارة وتلوث التاريخ. إنها المكان الذى ينفى الزمان ويبُطل فعاليته.

والمتنبى هو الصوت الشعرىُّ الذى انتصر للبيداء وكرَّس أسطورتها ودمَّر سخرية أبى نواس من بُدائيتها وسذاجتها، فحصر تأثيره فى الذوق العربىِّ، وردَّه إلى حلاوة التغنى بالطبيعة وعناصرها الفاتنة.

البداوة إذن هى كلمة السر فى عالم المتنبى المتناقض المشبع بشهوة السلطة ومجد الكلمة، وهى خاتمة الثالوث الأول وجوهر فحواه. لكن ما شأن هذه العناصر الكونية والحيوية التى تمثل منظومة الشعر؟ ما الذى يقوله عنها المتنبى بعد تَعْدادها وترتيبها واختيار رموزها؟ ما الذى يسنده إليها؟

هنا نجد المفاجأة الشعرية التى تعتمد على المفارقة، فهذه العناصر هى التى تعرف الشاعر وتألفه، وهى التى تمارس فعل القرب الإدراكىِّ منه، على عكس ما هو متداول من معرفة الإنسان للطبيعة، إنهما يتبادلان المواقع، بحيث تقوم الطبيعة